التوجيه الثقافي كبعد أساس في عملية البناء الحضاري للمجتمع الإسلامي من منظور مالك بن نبي

د. موسى لحرش
قسم علم الاجتماع
جامعة عنابة

ملخص

يعالج هذا المقال مسألة توجيه الثقافة في المجتمع عند المفكر مالك بن نبي، وهذا من منطلق أن الثقافة يتم تحديدها وتصورها في صيغة بيداغوجية هي كل هذه العناصر الأربعة – المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العلمي، التوجيه الفني- والتي تشكل فيما بينها تركيبا متآلفا يسمح بجمع شروط الفعالية التي هي الشيء الذي يريد "مالك بن نبي" التأكيد عليه، واعتبار كل ذلك ضروري في رسم معالم أية سياسة "خطة" قادرة على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة الشاملة واستئناف البناء الحضاري مثلما هو الحال بالنسبة للمجتمع الإسلامي.

Abstract

It is the aim of this paper to discuss the problem of cultural orientation from the point of view of the thinker "Malek Bennabi" starts.Our discussion from the point that the culture that can be point out and imagined in a pedagogical expression is all these four elements (moral principal, the beauty principal, the operational logic, and the artistic orientation) and which compose among themselves a systematic structure which allows to collect the necessary conditions of effecacity which is the focus of Malek Bennabi's thought, and which is important in any policy designed to change an inhirited state of affairs society has experienced and which is now looking for a new orientation.these are the conditions of renaissance and the civilisation rebuilding.

أولا: مقدمة: لقد أصبح من الضروري في نظر المفكر «مالك بن نبي» (*) أن نضع نصب أعيننا ــ عند وضع أية سياسة تنموية نحاول من خلالها تجاوز الأزمة المجتمعية ــ المشكلة بأكملها، وأن نأخذ - أولا وقبل كل شيء – في الاعتبار عنصرها الأساسي: الإنسان. ويلزمنا أولا هنا أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ[1] وفي هذا الصدد فهو يري بأن الإنسان - في الوقت الحالي- يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات [2]:

أ- بفكره
ب- بعمله
ج – بماله

ومن الممكن قلب الصيغة، والقول بأن قضية الإنسان في المجتمع - الذي يعاني أزمة حركة ونمو على مستوى مختلف الخطوط التنموية (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية...)- منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث:

أ- توجيه الثقافة
ب- توجيه العمل
ج- توجيه رأس المال

في هذه المساهمة سنحاول – في حدود ما يسمح به المجال - التركز أكثر على توجيه الثقافة كمطلب أساس في رسم معالم أية سياسة اجتماعية سليمة قادرة على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع – كالمجتمع الإسلامي - أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد؛ هو وضع النهضة.

ثانيا: توجيه الثقافة: أساسيات في الحقل الدلالي للمصطلح عند مالك بن نبي: تنبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن المقصود بـــ «التوجيه» عند «مالك بن نبي» هو أنه يمثل " قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف "[3]. إنه – بمعنى آخر- عملية منهجية ضرورية لـــ " تجنب الإسراف في الجهود والوقت " [4].

ومن المهم في هذا السياق - حسب «مالك بن نبي» دائما - التأكيد على ملاحظة منهجية أساسية وهي أن التوجيه في مجال الظواهر/المسائل الإنسانية يتطلب، من ناحية ابستمولوجية، تعريفها أولا. و«الثقافة» من بين هذه الظواهر/المسائل الإنسانية الأساسية التي تتطلب بإلحاح تعريفا، بل تعريفين[5].

- الأول: يحددها في إطار الحالة الراهنة.

- الثاني: يحددها وفق النظرة إلى المستقبل.

فالجيل الذي نمثله اليوم، على سبيل المثال، يشكل - في نظره – حدا فاصلا بين عهدين: عهد التراجع الحضاري وعهد بداية الانطلاق في بناء الحضارة. فهو بشروعه في بناء نهضته، يكون قد سجل نقطة « بداية لنهاية موت الضمير»، وفي الوقت نفسه نقطة انطلاق نحو يقظته. إنه - بعبارة أخرى - يكون قد سجل اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى والجمود وعهد التنظيم والتركيب والتوجيه. وحينما يصل التاريخ الإنساني إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة فإنه، لا محالة، يكون قد أقدم على مرحلة تمثل نهاية عهد وبداية عهد آخر، أي على مرحلة وسط بين الماضي « الميت » والمستقبل الذي ينبغي أن يكون « حيا »[6].

وهكذا، فإنه عندما نكون بصدد الحديث عن النهضة نحتاج - من ناحية منهجية حسب « مالك بن نبي » - إلى أن نتصورها من ناحيتين[7].

1- الناحية الأولى: **وهي تلك المتصلة بالماضي، أي بحصيلة التدهور المجسم في عالم الأشخاص، الأفكار والأشياء.**

2-الناحية الثانية: **وهي تلك المتصلة بـــ (بذور les germes) المصير وجذور المستقبل.**

وهذا التمييز ضروري جدا، ولا يعد موضوعه ضربا من الترف الفكري تمارسه مجموعة معينة من أفراد المجتمع تعيش في رفاهية. ذلك لأنه يتعلق في جوهره بتكييف حالة مجتمع بأكمله وتقرير مصيره وفق سياسة اجتماعية سليمة. وهذا لا يتسنى إلا بالشروع أولا بتصفية العادات، التقاليد، النظام الأخلاقي والاجتماعي مما في كل ذلك من عوامل « ميتة » أو « مميتة » ورواسب لا فائدة منها، حتى يُفسح بذلك المجال للعوامل الأخرى الفعالة لتنشيط حياة المجتمع وتحريكه باتجاه الحضارة؛ نحو صناعة التاريخ[8]. على أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، قادر على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة [9] (**).

والمراد بالفكر الجديد هنا هو تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي يراها « مالك بن نبي » ضرورية تماما للثقافة وهي:

برنامج التوجيه في مجال الثقافة الأخلاقية

الذوق الجمالي

المنطق العملي

التوجيه الفني (Technique).

هذا وتجدر الإشارة أيضا إلى أن التحديد المزدوج للثقافة – في إطار الحالة الراهنة وحسب المصير (المستقبل) – لا يعتبر ذا أهمية أو أثر بالغ إلا إذا زال ذلك الخلط الشائع بين مصطلح « الثقافة » ومصطلح « العلم ». فمعظم التفسيرات التي قدمت بشأن « الثقافة » يمكن ردها - في نظر« مالك بن نبي»- إلى مدرستين[10]: ''المدرسة الغربية: التي ظلت وفية لتقاليد عصر النهضة، وهي ترى عموما أن الثقافة ثمرة الفكر.- المدرسة الماركسية: التي ترى أن الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع ''. إن هذين الصنفين من التفسيرات يُعدان - من الوجهة التربوية - مشتملين على« فكرة عامة » عن الثقافة، دونما أي تحديد لمحتواها القابل لأن يدخله التعليم في سلوك الفرد ونمط الحياة في المجتمع.

وهذا ما يحاول « مالك بن نبي » أن يقوم به حينما يربط ربطا شديدا بين الثقافة والحضارة. إذ على ضوء هذا الربط " تصبح الثقافة – في مفهومه - نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم "[11]. ومن ثمة فالثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الفرد في المدارس ويطالعه في الكتب، أي بمعنى أنها ذات مضمون معرفي صرف، بحيث تصبح تساوي النتاج التعليمي أو التخصص في ميدان من ميادين المعرفة، وإنما هي جو عام من الأذواق

والعادات والقيم التي تؤثر في تكوين الشخصية وتحديد دوافع الفرد وانفعالاته وعلاقاته بالأفراد الآخرين وبالأشياء [12] (***).

وحتى يتسنى فهم الفرق بين الثقافة والعلم بشكل أكثر، يورد «مالك بن نبي» -في هذا السياق- مثالين؛ المثال الأول يتعلق بفردين كلاهما يمارس وظيفة تختلف عن وظيفة الآخر، ولكنهما ينتميان إلى مجتمع واحد، كطبيب إنجليزي وراعٍ إنجليزي.

أما المثال الثاني فيتعلق بفردين كلاهما يمارس الوظيفة نفسها، ولكنهما لا ينتميان إلى مجتمع واحد، بل إلى مجتمعين مختلفين في درجة تقدماهما كطبيب صيني وطبيب إنجليزي. فالفردين الأولين تتميز سلوكاتهما إزاء مشكلات الحياة بتماثل معين في الرأي(****) يتجلى فيه ما يسمى بـــ (الثقافة الإنجليزية). أما الفردين الآخرين فتختلف سلوكاتهما أحيانا اختلافا كبيرا، بل عجيبا، ينم عن طابع الثقافة الذي يميز أحد هذين الفردين عن زميله، وذلك تبعا لطابع الثقافة الذي يميز المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد عن المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد الآخر." هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى، والاختلاف في السلوك في (الحالة) الثانية، هما الملاحظتان المسلم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم "[13]، مما يدفع ذلك إلى التأكيد بأن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع، في جوهره، إلى معطيات وأشياء أعم من المعرفة التي نتلقاها في المدرسة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة في منظور «مالك بن نبي». ومما سبق، يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية - حسب «مالك بن نبي» - على أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولى في

الوسط الذي ولد فيه " لتكون هكذا '' المحيط الذي يشكل فيه (الفرد) طباعه وشخصيته"[14] (*****). وهي بتعريف أشمل تمثل " المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر "[15].

والجدير بالاستنتاج من هذا التعريف (العام) هو أنه يتضمن جانبين من الفلسفة: فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة '' أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع، مع (الأخذ) بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها (الشحنة) الروحية، عندما يؤذن (ظهور/بروز) إحدى الحضارات"[16].

وبهذا المفهوم يتبدى جليا، الموقع المحوري للمسألة الثقافية في حركة البناء الحضاري. غير أنه، وبتتبع وجهة نظر « مالك بن نبي » في الثقافة، نجده يركز، في المقابل، على أنه لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها على الوجه الصحيح.

والمقصود بالحشو هنا هو عدم تصفية عادات وحياة الأفراد بصفة عامة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، مثلما هو الشأن بالنسبة « للجزائر » إبان الاحتلال الفرنسي، حيث لم تنتج - عموما – ثقافة النهضة بها، في البداية، سوى مثقفين حرفيين (أنصاف مثقفين)– عبر عنهم « مالك بن نبي » بصيغة « رجل القلة أو رجل النصف » - منبثين في صفوف مجتمع أغلب أفراده أميين.

فـــ « رجل القِلة » هذا، لم يكن ينظر إلى مشكلة النهضة إلا ضمن حدود تحقيق حاجات وطموحات شخصية، جعلت من مفهوم الثقافة عنده هو أنها عبارة عن طريقة فقط، ليصبح شخصية بارزة (في البرلمان الفرنسي مثلا)، وإن زاد فعلم يجلب رزقا. إن هذا التحريف لمفهوم الثقافة تتجسد نتيجته في ذات – ما يسميه مالك بن نبي- بـــ « المتعالم أو المتعاقل أو بالأحرى مدعي الثقافة، الفهم والتعقل » «L'intellectomane»[17]. وظاهرة التعالم – أو الحرفية في التعليم – كـــ « مرض اجتماعي» يصيب المجتمع، لا تقل خطورة عن ظاهرة «الجهل المطلق» بل إنها لتزيد عنها خطورة، لأن « الجهل» يمكن علاجه، أما «التعالم» فلا علاج له. ولتقريب الصورة أكثر يسوق « مالك بن نبي » المثال التالي فيقول:" إن كلام هذا المتعالم ليس كـــ (تهتهة) الصبي فيها (صبيانية) وبراءة، فهو ليس متدرجا في طريق التعلم كالصبي، وإنما (تهتهته) تتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمن "[18]؛ الذي ينبغي أن يزاح من طريق الحضارة ليفسح بذلك المجال للطالب العاقل الجاد، كيفما كان وضعه الاجتماعي، لأن الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى وإنما تخص المجتمع كله.

وبهذا الفهم يصنع- تدريجيا- التاريخ، الذي لا يمكن أن نتصوره-حسب «مالك بن نبي » - بلا ثقافة، لأن المجتمع الذي فقد ثقافته، يكون قد فقد حتما تاريخه. فالثقافة، في النهاية، هي "الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر(المجتمع التاريخي)، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع (منذ البداية) لنفسه، بمن في ذلك الحداد، الفنان، الراعي، العالم والإمام وهكذا يتركب التاريخ[19]. وتغدو الثقافة - من هذه الزاوية - عاملا حضاريا تاريخيا، بل وأيضا نظاما

تربويا تطبيقيا (******)[20] ينشر بين جميع (شرائح) المجتمع ويوحد بينها على ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي (العالم وراعي الغنم...) (*******).

ثالثا: العناصر الجوهرية في عملية التوجيه الثقافي للمجتمع عند مالك بن نبي: يمكن القول في هذا السياق بأن هذا النظام أو البرنامج التربوي السابق ذكره والذي يتخذه المجتمع « دستورا » لحياته الثقافية يتألف من عناصر أربعة – يراها «مالك بن نبي» - مهمة جدا لجمع شروط « الفعالية » التي هي النقطة الأساسية التي من خلالها يمكن الوقوف على مكانة «الثقافة» في المجتمع ونجاح أية سياسة اجتماعية. وهذه العناصر هي كالتالي[21]:

التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية وتحديد السلوك الجماعي

داخل المجتمع.

والتوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام

والمنطق العملي

- والتوجيه الفني المتلائم مع حاجات ومتطلبات كل مجتمع.

1) - التوجيه الأخلاقي: ينبغي التأشير، في بداية تحليل هذا العنصر، على ملاحظة معرفية ومنهجية تتمثل في أن الاهتمام بعنصر « الأخلاق » لا تتم مقاربته هنا من زاوية فلسفية وإنما من زاوية اجتماعية تتحدد، على وجه الدقة، في « قوة التماسك » الضرورية للأفراد، في مجتمع يطمح إلى تكوين وحدة اجتماعية تاريخية حضارية .

ومن المعلوم في هذا الصدد أن « قوة التماسك » هذه مرتبطة، في أصلها، بغريزة- طالما تحدث عنها مفكرون عديدون (أرسطو، مونتسكيو، ابن خلدون) واستخدمتها القبائل الموغلة في البداوة - هي غريزة « الحياة في جماعة» عند الفرد، والتي تدفعه لتشكيل القبيلة، العشيرة، المدينة والأمة.

غير أنه من المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن المجتمع الذي يتجمع أفراده لتكوين حضارة ما، هو بدوره يستخدم الغريزة نفسها، ولكنه يزيد عليها بتهذيبها وتوظيفها بروح خلقية سامية [22].

ومصدر هذه الروح الخلقية-حسب «مالك بن نبي»- الأديان، ووظيفتها الاجتماعية هي ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة التالية: " و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم " [23].

إن ما يشد الانتباه في هذا السياق - حسب « مالك بن نبي » دائما - هو ذلك الاتفاق في المغزى والدلالة بين ما تذهب إليه هذه الآية وبين معنى كلمة «دين» « Religion » في أصلها اللاتيني وهو (الربط والجمع) [24].

ويكون من الخطأ - حسب «مالك بن نبي» ونحن نتحدث عن قوة التماسك الاجتماعي المهذبة والموظفة بروح خلقية مصدرها الأديان – أن نؤسس نظرتنا إلى «المدنية الغربية» على غلط منطقي- وقع فيه البعض ممن يُنتسبون إلى العالم غير المتقدم - يتمثل في النظر إليها (المدنية الغربية)، وكأن تاريخها قد ابتدأ من يوم أن

ألفتنا أنظارنا إليها، فنعيرها بذلك اهتمامنا في صورته الطارئة، المجتزأة والسطحية، وليس في صورته المتأنية والمعمقة.

وفي هذا الصدد يقول «مالك بن نبي»، لو أننا " تناولنا بالدراسة مشروعا اجتماعيا، كجمعية حضانة الأطفال في فرنسا على سبيل المثال، لبدا لنا من أول نظرة في صورة جمعية تقوم على شؤونها دولة مدنية (لا دينية)! في حين لو درسنا تاريخها، ورجعنا إلى أصول فكرتها الأولى، لوجدناها ذات أصل مسيحيي، فهي تدين بالفضل إلى القديس (فانسان دي بول) الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر" [25].

فالتاريخ إذا يتطور وتتطور معه مظاهر الشيء الواحد الذي يدخل في نطاقه. ويغدو الأساس الخلقي عاملا مهما في ذلك. إذ لا يصح مثلا - في نظر« مالك بن نبي » - أن ننظر إلى منتجات المدنية الغربية " وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة (كانت) الأساس الخلقي الذي قام عليه (صرح) المدنية الغربية في علومه وفنون فلو تناولنا (المذياع) مثلا لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بنائه، بينما هو في الواقع أثر من أثار تلك العلاقات الاجتماعية التي وحدت جهودا مختلفة لـــ(هرتز Hertz) الألماني، و(بوبوف POPOV) الروسي، و(برانلي BRANLY) الفرنسي، و(ماركوني MARCONI) الإيطالي، و(فليمنج FLEMING) الأمريكي، فكان (المذياع) نتيجة هذه الجهود جميعا"[26]، الموحدة بفضل علاقات خاصة ليست، في أصلها، سوى الرابطة المسيحية التي أنتجت المدنية الغربية.

والإسلام بدوره، يحمل - في نظر «مالك بن نبي» - هــذه الحقيقة المتمثلة في «الروح الخلقية». ويظهر ذلك جليا من خلال خَلقه من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي. إن هذا الخَلق يبين بوضوح أن «قوة التماسك الضرورية» للمجتمع الإسلامي موجودة فعلا في « الإسلام » ولكن أي إسلام (في نظر مالك بن نبي)؟. الإسلام المتحرك في عقول وسلوكات الأفراد والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي[27]. ضمن السياق نفسه يؤكد « مالك بن نبي » أيضا بأن المبدأ الأخلاقي (بصفة عامة) " يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصو، بدونه عالم الأشياء، ولا عالم المفاهيم. ومن هنا كانت أهميته الكبرى في تحديد الثقافة في مجتمع ما، وفي توضيح (الفرق) الجوهري بين الثقافة التي تتضمن كشرط أولي تحديد الصلات بين الأفراد وبين العلم الذي لا يهتم إلا بالصلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء"[28](********).

2)- *التوجيه الجمالي*: يعتبر المبدأ الجمالي أساس ثاني هام تقوم عليه الثقافة، فهو الذي " يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال"[29]. بمعنى آخر أن الأفكار التي يتضمنها - والتي تمثل المنوال الذي تنسج عنه الأعمال- تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار (المحيط) الاجتماعي (*********)، والتي تنعكس بشكل أو بآخر، في نفسية من يعيش فيه. وهذا بالضبط ما قصده «مالك بن نبي» عندما قال أن " الجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل (**********) أو السماجة المستهجنة "[30].

يظهر هذا حتى في أبسط معاني الجمال؛ في شكل اللباس الذي يرتديه الإنسان، في الحقيبة التي يحمل فيها ملابسه عند السفر، في المسحة التي تكون عليها الشوارع والبيوت والمقاهي...[31]. إن كل هذا ينم عن أن المبدأ الجمالي يشكل أساسا هاما في ثقافة المجتمع، " فإذا كان المبدأ الأخلاقي - حسب « مالك بن نبي » - يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والاتجاهات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته، وهنا وجه آخر للفرق بين العلم والثقافة.(إذ) الأول تنتهي عمليته عند إنشاء الأشياء وفهمها، بينما الثانية تستمر في تجميل الأشياء وتحسينها"[32].

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا السياق - وإلى جانب كل ما تقدم - هو أن النموذج الذي يكون عليه المجتمع؛ أي مجتمع، يتأثر إلى حد كبير بنتيجة العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، والتي تأتي أولا (نتيجة العلاقة) في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في (سلم) القيم الثقافية في المجتمع.

ويمكن القول في هذا الصدد بأنه هناك - بصورة عامة - نموذجين من المجتمعات: الأول يقوم فيه النشاط أساسا على المنازع والدوافع الجمالية، والثاني يقوم فيه النشاط أساسا على المنازع والدوافع الأخلاقية. إن هذا الاختلاف في ترتيب عناصر الثقافة ليس مجرد اختلاف شكلي، لأن هذين النموذجين من المجتمعات لا يتطوران في الأصل، في اتجاه واحد. فالمجتمع الغربي، على سبيل المثال، كان قد مارس من بين فنونه، فن التصوير، وتصوير المرأة العارية بخاصة بسبب الدافع الجمالي، بينما الفن الإسلامي لم يخلف آثارا في التصوير تصب في هذا الاتجاه، أو بالأحرى في هذا النوع

من الصور، لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يسمح للفنان بأن يعبر عن كل أنواع الجمال، وعلى الخصوص إذا تعلق الأمر بإنجاز صور تجسد المرأة وهي عارية.

والشيء نفسه أيضا بالنسبة لتطور الملابس في المجتمع الغربي، والذي انطلق من فكرة أساسية، وهي محاولة إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره (مظهر الجمال)، بينما لم يتخذ تطور الملابس في المجتمع الإسلامي هذا المنحى أو هذا الاتجاه، بل اتخذ اتجاها مخالفا تماما له.إذ هدف أساسا من خلال وسائل معينة(كملاية اللف في الجزائر وغيرها من دول العالم الإسلامي) أن يخفي جمال المرأة في الشارع (**********). إن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية تفتقد لعنصر الجمال أولا تثمنه، وإنما تضعه في مكان آخر من سلم القيم [33].

هذا ويمكن الوقوف أيضا على نتيجة هذه العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي- والتي تأتي أولا في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال- من خلال دراسة الاستعمار كظاهرة ثقافية تدل على " أن الثقافة الغربية حددت علاقة (مبدأ أخلاقي - ذوق جمالي) بصفة معينة، وذلك بأن قدمت العنصر الثاني على الأول في ترتيب القيم، فأثر هذا الترتيب في علاقة الإنسان الأوروبي بالإنسانية. فكل ثقافة سيطرة (culture d'empire) هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية التظاهرية (الاستعراضية) على حساب القيم الأخلاقية "[34].

ويمكن تتبع وملاحظة الأثر الكبير الذي يتركه مفعول علاقة (مبدأ أخلاقي - ذوق جمالي) في مجالات أخرى مثل ما يتعلق باتجاه الأدب بصفة عامة، بحيث تُحدد هذه العلاقة في هذا المجال، بنزعة يطلق عليها - في المجتمعات التي تعطي الأولوية لذوق

الجمال - بـــ « الفن للفن »، كما تحدد من ناحية أخرى بنزعة يطلق عليها – في المجتمعات التي تقدم الأخلاق بصورة ما على الجمال - بـــ « الأدب الملتزم »[35].

إن هذا الترتيب الخاص الذي يقدم أو يؤخ المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي ينتهي أيضا، في نظر« مالك بن نبي»، إلى " تحديد مناهج سياسية مختلفة تمام الاختلاف. فبينما ينزع منهج إلى تأسيس ديمقراطية تجعل حرية الفرد هدفها، وذلك بدافع جمالي، إذا بالأخرى تنهج إلى ديمقراطية تستهدف سعادة المجتمع وذلك بدافع أخلاقي"[36].

وهكذا فإنه حينما يتعلق الأمر بمعالجة مشكلة توجيه الثقافة في المجتمع، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار مثل هذه المسائل، لأن أي خلل يحدث في هذه العلاقة (مبدأ أخلاقي – ذوق جمالي) يؤدي في النهاية، إلى حدوث خلل في توازن الحضارة.

***3) - المنطق العملي:* يشكل هذا المبدأ أساسا ثالثا هاما تقوم عليه ثقافة المجتمع، فهو مبدأ يخص المحصول الاجتماعي، يخص الفعالية الفردية والجماعية، وبهذا فهو هنا (المنطق العملي) لا يعني ذلك المنطق الذي دُونت أصوله، وَوُضعت قواعده مع ظهور المفكر اليوناني «أرسطو»، وإنما هو ذلك المنطق الذي يُعنى بشكل كبير بالتجسيد والتطبيق وبكيفية ارتباط العمل بوسائله، وغاياته، ومنه بمحاولة استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة واقعيا[37]. وبهذا تتحقق وتتجسد الفعالية في كل نوع من أنواع النشاط الإنساني الذي يقوم- دائما - على أساس الحركة.**

وما التاريخ الإنساني نفسه - في نظر « مالك بن نبي » - " إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار، ولذلك فإنه من البديهي أن المجتمع الذي يسجل يوميا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يُكون لنفسه محصولا اجتماعيا أكبر (بمعنى فعالية أكبر). (فمثلا) الفرد الذي يسير عشر خطوات، ويحرك يده عشر مرات (بطريقة منظمة وهادفة) يقدم للمجتمع من الثمرات (أو الإنجازات) أكثر مما يقدمه فرد يسير خطوة واحدة، ويحرك يده مرة واحدة "[38].

وهكذا فإنه بإضافة هذا المبدأ الثالث (المنطق العملي) إلى مفهوم الثقافة يكون قد تم تكوين شرط هام آخر من شروط الفعالية في سلوك الفرد، وأسلوب الحياة في المجتمع. ولا شك في أن هذا المبدأ سيزيد – حسب « مالك بن نبي» - في توضيح الفرق الجوهري بين الثقافة والعلم، ومن ثمة بين الفرد المثقف والفرد العالم أو المتعلم[39]. وما تنبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا هو أن « مالك بن نبي » يعتبر أن الفرد المسلم اليوم لا ينقصه، في الأصل، منطق الفكرة، وإنما ينقصه منطق العمل والحركة. فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا خالٍ من ذلك الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها...

إن هذا الكلام ينسحب على المجتمع الإسلامي ككل، بحيث لا يصح القول عن هذا الأخير أنه يعيش طبقا لمبادئ القرآن الكريم في كل أحواله، وإنما هو يتكلم تبعا لمبادئ القرآن الكريم. ذلك لأن المنطق العملي في سلوكه الإسلامي غير موجود. وهو ما يفسر - إلى جانب عوامل أخرى - لا فعاليته[40].

4)- التوجيه الفني : يشكل هذا المبدأ أساسا رابعا هاما تقوم عليه الثقافة في المجتمع. وهو يتصل بمختلف النشاطات التي يمارسها الأفراد(الفنون، الحرف، العلوم/ الصناعة بتعبير «ابن خلدون»). ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد هو أن التوجيه الفني يمثل بالنسبة للفرد (لوحده) وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، بينما يمثل بالنسبة للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه. وفي هذا الإطار، يرى « مالك بن نبي » أنه يتوجب، في كل توجيه فني لعمل الفرد، أن تؤخذ بعين الاعتبار العلاقة الترابطية المزدوجة بين المصلحة الخاصة (الفردية) والمصلحة العامة، لأن في ذلك تحقيق للفعالية التي يحتاج إليها المجتمع الذي يهدف إلى بناء حضارة متوازنة ولها أساس ثقافي قوي. وعلى المجتمعات التي تعاني من مشكلة التوجيه هذه - مثل المجتمع الجزائري - أن تنشئ مجالس حقيقية للتوجيه الفني لتحل هذه المشكلة نظريا وعمليا، تبعا لحاجات ومتطلبات كل مجتمع[41].

خاتمة:

هكذا إذا، فالثقافة التي يتم تحديدها وتصورها في صيغة بيداغوجية هي كل هذه العناصر الأربعة- (المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العملي، التوجيه الفني)- التي تشكل فيما بينها تركيبا متآلفا يسمح بجمع شروط الفعالية التي - هي كما تم توضيحه- الشيء الذي يريد « مالك بن نبي » التأكيد عليه من خلال كلمة « ثقافة »، واعتبار كل ذلك ضروري في رسم معالم أية سياسة اجتماعية سليمة، قادرة على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع مثل المجتمع الإسلامي أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد؛ هو وضع النهضة الشاملة واستئناف عملية البناء الحضاري.

- الهوامش:

(*)- مالك بن نبي: هو مفكر إسلامي عالمي، ولد سنة 1905 في مدينة قسنطينة في الجزائر، حيث تابع فيها دروسه الأولى، ثم إنتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس (فرنسا) حيث تخرج سنة 1930 كمهندس كهربائي. ولقد إتجه إهتمامه منذ البداية نحو تحليل الأحداث و الأوضاع المحلية و العالمية التي كانت تحيط به.وقد أعطته،في هذا الإطار، ثقافته الواسعة والممنهجة قدرة على إبراز مشكلات العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة بالأساس. فوضع بذلك مؤلفاته تحت عنوان " مشكلات الحضارة ". في باريس أصدر باللغة الفرنسية: الظاهرة القرآنية، لبيك، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الآسيوية؛ بمناسبة انعقاد" مؤتمر باندونج ". وفي سنة 1956 سافر إلى القاهرة حيث طبعت له وزارة الإعلام هناك باللغة الفرنسية كتابه الموسوم بـــ " الفكرة الإفريقية الآسيوية ". عمد في القاهرة، بعد إتصاله بالعديد من الطلبة إلى ترجمة مؤلفاته الأولى إلى العربية، ثم أصدر بقية مؤلفاته باللغة العربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر باللغة العربية مباشرة. إنتقل إلى الجزائر سنة 1963 حيث عين مديرا للتعليم العالي، وأصدر فيها المؤلفات التالية: آفاق جزائرية، يوميات شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد. في سنة 1967 استقال من منصبه ليتفرغ بذلك للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية. توفي بتاريخ 1973/10/31 في الجزائر. لمزيد من التفاصيل أنظر: موسى، لحرش: إشكالية الحضارة وأزمة مجتمعات العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي؛ المجتمع الجزائري نموذجا. أطروحة دكتوراه الدولة في علم الاجتماع، جامعة باجي مختار (عنابة) ، 2002 ، ص 120-159

1-MALEK, Bennabi: Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). Tipaza, Société d'édition et de communication, 1992, p 33.

2- Ibid. : p33

3- Ibid. : p 34.

4- Ibid. : p 34

5- Ibid. : p 35

6- Ibid. : p 35

7- Ibid.: p 35

8- Ibid. : p 35

9- Ibid : p 36

(**)- يرادف مصطلح « النهضة » عند مالك بن نبي مصطلح « الحركة »، فهي عنده سعي متواصل نحو غاية واحدة ووحيدة هي «الحضارة».

10- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)] ، 1984 ، ص ص 29 ، 72 –73.
- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)] ، 1984 ، ص 88 .

11- أنظر في هذا الصدد:- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة). ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 73. - مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمةعمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 88.

12- مالك، بن نبي: تأملات.ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1986، ص 143. (***)- ومن هنا فإن المدرسة لا توفر وحدها للفرد الصفات المحددة للمحصول الاجتماعي أو الفعالية إلا ضمن إطار عام يتعلق بوسطه الثقافي الذي يتحرك فيه. كما أن السلبية أواللافعالية الخاصة بالوسط العام تنعكس في سلوك الفرد ونشاطاته.[- لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد:- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 42 .

MALEK, Bennabi: Les conditions de la Renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit. p38. وعلى كل فإن الثقافة،في النهاية،تمثل في نظر« مالك بن نبي» «ظاهرة بيئة» قبل أن تكون«ظاهرة مدرسة ». [لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد :. MALEK ,Bennabi . thèmes Les grands. Alger, copy-right Omar Benaissa, 1976, p53

(أو) - مالك، بن نبي: آفاق جزائرية (للحضارة - للثقافة - للمفهومية). ترجمة الطيب الشريف، الجزائر، مكتبة النهضة، 1991، ص 127]. (****)- ذلك لأن المجتمع زودهما بإطار ثقافي واحد يجعلهما- على الرغم من الاختلاف في الوظيفة... -يستسيغان، مثلا، قطعة مسرحية واحدة ويضحكان لنكتة واحدة...، بينما لا يؤثر ذلك في مشاعر الأفراد الآخرين ممن نشأوا في وسط ثقافي آخر مغاير

13- أنظر في هذا الصدد: - مالك، بن نبي:مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين مصدر سابق، ص ص 73-74.- مالك، بن نبي : شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، مصدر سابق، ص 89 .

14- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة .ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74 - مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 89.(*****)- وبالتالي فهي هنا تمثل: نظرية في المعرفة ومنهجا في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء.

15- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74 .- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق ، ص 89 .

16- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74 .- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص ص 89 – 90 .

17- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 75 - MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P37.

18- أنظر في هذا الصدد : - مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 76 - MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).OP. Cit., P38.

19- أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 77.) - MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance

(******)- أن أي تفكير في مشكلة«الثقافة» هو في الأساس- في نظر« مالك بن نبي»- تفكير في مشكلة التربية

20- عمر كامل، مسقاوي: حول فكر مالك بن نبي.دمشق، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، ص ص 42 – 55،43 و75

(*******)-يقول «مالك بن نبي» في هذا الصدد - وهو يستحضر من عالم الطب مفاهيمه المميزة- أنه يمكن توضيح وظيفة « الثقافة » بشكل أكثر، وذلك بأن نمثل لها بوظيفة الدم،" فهو يتركب (من نوعين) من الكريات : الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من (البلازما)، ليغذي الجسد، و«الثقافة» هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار (النخبة) كما يحمل أفكار العامة)، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة

21- MALEK, Bennabi: Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation) OP. Cit. , P39.

22- Ibid: P40.

23- سور الأنفال : الآية رقم 63.

24- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 79.

25- المصدر نفسه: ص 80 .

26- المصدر نفسه: ص ص 80 – 81 .

27- أنظر في هذا الصدد: - المصدر نفسه : ص 81 . - MALEK, Bennabi: Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P41

28- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص ص 144 – 145

(********)- من المهم الإشارة فيه هذا الصدد أيضا إلى أنه قد يكون من جهة أخرى للفرد« العـــالم » إلمـــام بالمشكلة كفكرة، لكنه لا يجد في نفسه تلك الدوافع أو الحوافز التي تجعله يتصورها كعمل، بينما يرى الفرد« المثقف » نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي ، الذي يكون أساس ثقافته، إلى عملية هي في جوهرها، مجرد علـــم وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل.{ - لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد : - مالك، بن نبي: تـــأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص 145.}

29- المصدر نفسه: ص 146

(*********)- يظهر ذلك جليا مثلا من خلال عملية التجميل التي تقوم بها المرأة لنفسها. فـــ " المرأة في « قبائل الكونغو » حينما تشق شفتيها لتركب فيها قرطين من نحاس، إنما تقوم -كما يقال اليو - بعملية تجميل مطابقة لتطور وسطها، كما أن المرأة الصينية المعاصرة لـــ (سونيات سن)، التي كانت في طفولتها تضع قدميها في قالب من حديد حتى لا يزيد طولها عن قدر معين، إنما هي في هذا تتجمل بمثل هـــذه العمليـــة القاسية". [- لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد :- مالك، بن نبي: شروط النهضة.ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مســـقاوي وعبـــد الصـــبور شـــاهين، مصـــدر ســـابق، ص ص 106–107.]

(**********)- هذا الذوق الذي إذا تمكن من نفس الفرد يصبح دافعا دوما نحو الإتقان والتفنن في العمل، وتوخي ما هو حسن من العادات، والنفور من الفوضى واللانظام وكل ما هو مستهجن.- أنظر في هذا الصدد: - الطيب، برغوث: موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي. (سلسلة لبنات في البناء الحضاري)، الجزائر، دار الينابيع للنشر والإعلام، 1993، ص24.]

30- أنظر في الصدد:- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شـــاهين، مصدر سابق، ص 82.–

31- MALEK, Bennabi : les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).. Op. Cit., p42

32- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص 146. (**********)- غير أنه إذا حدث وأن ظهرت المرأة المسلمة بلباس مخالف، فإن هذا لا يعني- في نظر « مالك بن نبي »- أن المجتمع الإسلامي قد غير ملبسه، وإنما الأمر يتعلق هنا ببداية تغيير اتجاهه الأصيل، مستعيرا في ذلك طرائق ودوافع التعبير عن هذا الجمال من مجتمع آخر دون أن يشعر.

33- أنظر في هذا الصدد:- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامـــل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص ص 108 –110.

34- المصدر نفسه: ص 111.

35- المصدر نفسه: ص 111.

36- المصدر نفسه: ص 112.

37- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). Op.Cit., p45.

38- المصدر نفسه: ص 146.

39- المصدر نفسه: ص 147.

40- MALEK ,Bennabi :Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation) Op. Cit, pp. 45-46

41- لمزيد من هذه التفاصيل أنظر في هذا الصـــدد .Op. MALEK, Bennabi : Les grands thèmes -Ibid. : p 44 Cit., p 61.

- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4،(طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 88.

- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص 147.